محكم

# أوهام الأصوليّة وسراب الديمقراطيّة: رؤية نقديّة "للحركات الإسلاميّة" و"الثورات العربيّة"


**عمار بنحمودة**

باحث تونسي



مؤمنون بلا حدود

Mominoun Without Borders

مؤسسة دراسات وأبحاث

قسم الدين وقضايا المجتمع الراهنة



جميع الحقوق محفوظة

مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات و الأبحاث

All rights reserved

Mominoun Without Borders

## ملخص الدراسة:

حدثت انتفاضات الربيع العربي بشكل فاجأ كثيراً من الملاحظين والمحلّلين والسياسيّين، وكانت الدهشة في بداية الثورة سائدة بين المثقّفين، ولكنّها سرعان ما آلت إلى محاولة البحث في طبيعة هذه الانتفاضات ومساراتها، إمّا نقلاً لأحداثها أو تحليلاً لخلفياتها ومقاصدها، وكان الواقع أسرع من أن تستوعبه النخبة، فراحت تلهث وراء أحداث سريعة لا تهدأ، وتحمل كل يوم جديداً قد يبدّل رأيا أو يعدّل موقفا، ولكن تظل الحاجة ملحّة بعد ثلاث سنوات من قيام تلك الانتفاضات إلى بدء تفكيك متأنٍّ للواقع في دول الربيع العربي، وقد اتّجهت الدراسة إلى فهم الديمقراطيّة جدلاً بين مفاهيمها نظريّا وممارستها سياسيّا، وولّينا وجوهنا شطر الحركات الأصوليّة، سواء أكانت معتدلة أم راديكاليّة من أجل دراسة العلاقات الداخليّة بين فصائلها، وفهم صدمة الممارسة التي جعلت أصحاب شعار "الإسلام هو الحل" يواجهون الاختبار الواقعي لشعاراتهم ودعواتهم باعتماد أساليب سياسيّة مختلفة دون أن نغفل البحث في "الصحوة الأصوليّة" التي بدأت بعد أحداث الحادي عشر من شتنبر، ويتدرّج التفكيك باعتماد المنهج التاريخي بحثاً في الواقع والخطاب، وسعيا إلى تقييم التجارب السياسيّة، والحفر عميقا في سجلّ الحركات الأصوليّة وعلاقتها بالولايات المتحدة الأمريكيّة.

## مقدمة:

لقد أفضت الانتفاضات الشعبيّة في دول الربيع العربي إلى بروز مفاهيم سياسيّة صارت كثيرة التداول في مجالس النخبة وعلى ألسنة الناس على اختلاف منازلهم الاجتماعية، ولكثرة تداولها دخلت طورا من الدوغمائية في تصوّرها يحتاج إلى تأنّ في فهمها وتعمّق في تتبّع مساراتها الفكريّة تنظيرا وممارسة. ولتجاوز السبق الذي حصل في تجاوز الفعل الشعبي آفاق انتظار المثقف في الوطن العربي؛ فقد ارتأى البحث في هذه المفاهيم عدم الاكتفاء بعرض الأسانيد النظرية في أبراجها العاجيّة، وإنّما محاولة نقل الموقف الشعبي ممّا يحدث ومحاولة تحليله، فلا البحث سابح في التنظير ولا هو بنشرات الأخبار والآراء الشعبيّة بمكتف، هاجسه المراوحة بين قواعد النخبة ومقتضيات العلم، وصوت الشعب الذي صار طائرا محكيّا والمثقف الصدى.

وإنّ الناظر إلى الساحة السياسيّة بعد انتفاضات الربيع العربي، ليرصد تباينا بين المدافعين عن شعار "الإسلام هو الحلّ" وأنصار العدل والحرّيّة والديمقراطيّة، وقد لا تكون أسباب هذا التباين ناتجة عن تباعد زماني في المرجعيّات فحسب، وإنّما لخلاف صار راسخا رسوخ الإيمان في قلوب أصحابه، فصار الاستعداء متبادلاً بين التيّارات الأصوليّة باختلاف فصائلها والنسق الحداثي بمختلف فروعه، ذلك أنّ الديمقراطيّة، وإن كانت في ذهن أصحابها الحلّ السحري للمعضلات السياسية التي قضت بتناحر المتنافسين على السلطة، فإنّها تظل مرفوضة من الشقّ الذي يرى في الإسلام حلاّ سحريّا لمعضلات الإنسانيّة يستمد قداسته من مراجعه النبويّة وأرضيّته القرآنيّة وفق منطق: الله أعلم بشؤون عباده، ولم تتأسّس هذه المقاربات في عصرنا، وإنّما نمت جذورها نتيجة تراكمات تاريخيّة جعلت كل مقولة تكتسب أسباب قوّتها.

## أوهام الأصوليّة:

### 1- أسيجة النصّ:

لقد تأسّست الدوغمائيّة الأصوليّة من الوعي الديني ذاته؛ فقد قام على مرجعيّة إلهيّة تستمدّ القداسة من النبيّ، باعتباره ناقلا للوحي الإلهي المنزّل، وقد كان القرآن نصّا مسيّجا، إذ أنّ عمليّة تدوينه، على ما فيها من الفضل في حفظه من الزيغ والتحريف، قضت بتأبيد أحكامه اللغويّة التي لن تخرج التأويلات الإسلاميّة عنها، فقد رسمت باللّغة أسيجة المعنى وسجن المرجع، فلا يستطيع المؤوّل الإفلات من قداسة النص اللغوي التام والمكتمل، ولهذا فقد ظل اختلاف التأويل بين المسلمين في النص القرآني لا خارجه، وكان ذلك مسؤولاً عن إقصاء مباحث فكريّة أخرى، ولا يزال باسم القداسة التي اكتسبها النص، فأسيجته تجعل الفكر الإسلامي واقعا تحت سلطة المرجع وإن على حساب المتلقّي والواقع، ولم تكن حدود الانغلاق عند النصّ القرآني فحسب، بل

كان الحديث النبوي بدوره دافعاً، لتوسيع دائرة النص حين تغيب الأحكام القرآنيّة، وقضت هذه النصوص بثنائيّة حكمت الفكر الإسلامي أساسها الفصل بين المقدّس والمدنّس، ولئن حاول فرقة المعتزلة مثلا الانعتاق من سجن النص إلاّ أنّ أعلامها كانوا مدفوعين إليه دفعاً، ذلك أنّ التأويل المجازي للنصّ القرآني يظلّ دوماً مشدوداً إلى المحور القرآني غير قادر على التحرر من سلطة الحديث النبوي، إما تأويلاً لأحكامه أو ردّا على الخصوم الفكريّين المتحصّنين بقداسة ألفاظه وبتطوّر الفكر الاعتزالي، صارت الهدنة أكبر مع النص.[1] والمقدّس بطبعه كالخمر كلّما عتّق صارت قيمته أكبر، ولذلك فإنّ التقادم قد منح كثيرا من الإنجازات اللغويّة قداسة، ذلك أنّ سريان نار المقدّس قد بدأت من النصّ القرآني؛ فالحديث النبوي وصولا إلى الحكم الفقهي، وقد استطاع الفقهاء بالإجماع أصلا من أصول الفقه أن يضمنوا للأحكام قوتها وسلطتها على المتديّنين، ولقد اتّجهت المقدّسات نحو الانتشار وفق منحيين: تقديس النصوص وتقديس الأشخاص؛ فالاتجاه السنّي توازت فيه قداسة النبي وقداسة الصحابة وعلماء السنة وفقهاؤها مع قداسة النصوص المؤسّسة، كالقرآن والحديث. أمّا الفكر الصوفي، فناشئ في رحم النصّ القرآني بحثاً في لبّه، مرتبط بأشخاص هم أقطابه وغوثه وسبيله نحو عالم المعنى المطلق، والشيعة متمسّكون بالحقائق الجوهريّة لإمامهم المقدّس سبيلاً نحو الخلاص، وإن طال انتظار المهدي، والخوارج جعلوا من النص محور القداسة، واعتقدوا اعتقاداً راسخاً أنّهم يحتكرون أحكامه ويقاتلون كلّ الأشخاص الذين يرون فيهم تدنيسا لمقدساتهم، وإن كانوا أئمّة في نظر أتباعهم، كل هذا الإرث ظلّ حاضرا في اللاوعي الجمعي للمسلم، والحكم الثابت الذي يعتقدون فيه أنّهم على دين الحق، وأنّ خصومهم في ضلال مبين.

### 2- نزعة المركزيّة:

إنّ الحفر في طبقات الوعي الديني يفضي إلى القول، إنّ الحقّ المطلق كان سمة الفكر الديني، وحين نحلّل الذات المسلمة نجدها ذاتاً مفتونة بدور البطولة لا تستطيع قبول واقع تلعب فيه دوراً ثانويّا، وقد نَحَتْ هذه النزعة نحو تضخّم الوهم وخصوبة المتخيّل؛ فكلّ عصر كان فيه المسلم يشعر أنّه محور الكون، إمّا غالباً تدين له الدنيا أو مغلوبا يمثّل مصدر خطر وتهديداً للآخرين، ولذلك فقد ارتبط نشاط الفكر الديني بفترات الصدام قديما وحديثاً، وبعقليّة المؤامرة[2]؛ فهو فكر لا ينشأ إلاّ في إطار وجود خصم سواء أكان ضعيفاً أم قويّا. ولقد ارتبط التاريخ الإسلامي بظاهرتين رئيستين: الأولى هي الحرب والغزو، والثانية هي علم الكلام والردّ على أصحاب الملل الأخرى فمن تعريفاته المتواترة أنّه: "علم يتضمّن الحجاج عن العقائد الإيمانيّة بالأدلّة العقليّة

[1]- تحول الموقف الاعتزالي من نقد حجية الحديث مع النظام (ت231هـ) مثلا إلى اعتباره أمراً واقعاً مع القاضي عبد الجبار (ت415هـ).

[2]- يقول فاروق عمر العمر متحدّثا عن الفريق المؤمن بنظريّة المؤامرة: "العرب ضحيّة مؤامرة أو مؤامرات عديدة حاكتها أياد خارجية وخاصة الغربيّة أو الأمريكيّة بمساعدة من الدوائر الإسرائيليّة لاستعمارنا ونهب ثرواتنا ولسلبنا حقوقنا وأراضينا وتباين مواقفنا، بل واقتتالنا فيما بيننا." المؤامرات حقائق أم نظريات؟، ط1، مصر، مطابع الأهرام، 2007، ص 10

والردّ على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات."[3] والباحث عن الصلة بينهما يجد أنّ من ثوابت الممارسة الإسلاميّة تأسيس الذات على أساس منطق جدلها مع الآخر والبحث عن أسباب استبعاده، لعلّ الجدل الهيجلي بين السيّد والعبد يختزل حقيقته تمثيلا ذلك الذي حكم الوجود الإنساني بحثاً عن الاعتراف بالذات وفرض سيادتها على الآخر، ولكن هل يمكن الحسم في صاحب الحق، وهل السيّد دوماً هو صاحب الحق، أمّا العبد المنهزم فعَلَى باطل؟ بل لعلّ ذلك يستدعي الأسئلة النيتشويّة: "في أي شروط عمد الإنسان إلى اختراع مقياسي الخير والشرّ هذين بغية استعمالهما في حياته؟ وما هي قيمة هذين المقياسين بحدّ ذاتهما؟ هل أدّيا حتّى الآن إلى عرقلة تطوّر البشرية أم إلى تعزيز هذا التطوّر؟ هل هما عارض من عوارض البؤس والفقر الروحي والانحطاط؟".[4]

### 3- المقدّس والمدنّس:

لعل مثل هذه الأسئلة قد تقودنا إلى صراعات يمتدّ مداها من عالم المرئي إلى الغيب وفق هندسة الثنائيّات التي برع الوعي الديني في نحتها تلازماً بين الملائكة والشياطين، أو بين الجنّة والنار أو بين الدنيا والآخرة، وهي الثنائيّات ذاتها التي حكمت الوعي الإسلامي الذي يعتقد في ذاته الخير المطلق، ويرى في الآخر شيطانا رجيما. ويمكن أن نرصد هذا المنطق في النصوص التأسيسيّة للحركات الأصوليّة فابن تيمية يقيم جدار فصل معرفي مع الفلسفة من خلال تكفيره الفلاسفة ويحتكر الحقيقة الدينيّة من خلال تكفير اليهود والنصارى الخوارج، وتنغلق دائرة التكفير عنده على حلقة مفرغة "فمن لم يكفّر الكافرين ويقرّ بأنّ الله تعالى لا يقبل دينا سوى الإسلام فهو كافر."[5] فمنطقه يقضي بخيارين أحلاهما مرّ: إمّا أن تكفّر اليهود والنصارى، وإمّا أن تصير كافرا مثلهم، وذاك منطق تصحّ فيه عبارة أركون حين تحدّث عن "الأسيجة الدوغمائيّة"؛ فالمتلقّي سجين منطق لا يستطيع تجاوزه إلى أطروحات أخرى متى آمن به، وأبو الأعلى المودودي يرى وجود "فرق أساسي عظيم بين الإسلام والقوانين الوضعيّة في تنظيم السلوك الإنساني؛ فالقوانين الوضعيّة تعتمد تماماً على الرأي الإنساني، وهي مضطرّة بطبيعة الحال إلى مراجعة رأي الخاصّة والعامّة في كلّياتها وأصولها، بل في كل فرع منها، وشأن الرأي الإنساني - سواء أكان للخاصة أم للعامة - أنّه لا يزال يتأثّر في كل آن بالعواطف والنزعات الإنسانيّة والأسباب والعوامل الخارجيّة وأحكام العلم والعقل القابلة للتغيير - مما يلزم أن يكون صوابا في كلّ حال - وهذا التأثّر يؤدي إلى التغيير في الأفكار والآراء وبهذا التغيّر تتبدّل بالضرورة مقاييس الخير والشر

[3]- عبد الرحمان بن خلدون، **المقدمة**، ط1، دار الجيل، بيروت (دت)، ص 507

[4]- فريديريك نيتشه، **أصل الأخلاق وفصلها**، (ترجمة حسن قبيسي)، ط1، بيروت، المؤسّسة الجامعيّة للدراسات والنشر والتوزيع، (د ت )، ص 11

[5]- عبد المجيد بن سالم بن عبد الله المشعبي، **منهج ابن تيمية في مسألة التكفير**، ط1، السعودية، مكتبة أضواء السلف،1997، ص 152

والصحيح والخطأ والجائز والمحظور والحرام والحلال، واضطراب هذه المقاييس يكره القانون على أن يميل معها، حيث مالت، وبذلك لا يتحقّق للأخلاق والمدنيّة مقياس ثابت مستحكم غير قابل للتغيير، بل يتحكّم تلوّن الطبع الإنساني في القانون وتلوّن القانون في الحياة الإنسانيّة... وبخلاف ذلك إنّ جميع الأصول الكلّيّة ومعظم الفروع الجزئيّة للقانون والأخلاق في الإسلام هي من وضع الله والرسول، وإن كان له بعض الدخل في الجزئيّات؛ فهو لا يعدو أن يستنبط الإنسان فروعاً جديدة من تلك الأصول الكلّيّة والشواهد الجزئيّة مراعاة لأوضاع حياته المتبدّلة، تنطبق على أصول الشرع حتماً. ومن بركات هذا التشريع الرباني أنّه يضع بأيدينا مقاييس ثابتة للمدنيّة والأخلاق لا يتزلزل."[6] وهو منطق يتأسّس على ثنائيّة الإلهي المقدّس والإنساني المدنّس، ويجعل فضل الإسلام في كونه دين الثوابت، وتلك في نظره أسباب قوّته. أمّا القانون الوضعي، فهناته في تبدّله وعدم ثباته، وهو منطق يناقض ذاته لأنّه يقرّ بالتحول سمةً إنسانيّة بينما يتصور القوانين المثاليّة ثابتة، ولعله نتيجة الزاوية الأخلاقيّة الضيقة التي نظر منها المودودي إلى أمريكا، فاختزلها في كأس خمر علامة على الفساد الأخلاقي، وتصوّر الإسلام حلاّ لإنقاذ الأمم مما تردّت فيه من لهو ومجون، والحال أنّ الصورة أوسع من تلك الزاوية والحقيقة أكبر من أن تختزل في معادلة الأخلاق والفساد، ولذلك فالوعي الأصولي مسكون بالنرجسيّة وعقدة الاستعلاء وقد عبّر عنها سيّد قطب بحديثه عن استعلاء الإيمان، وهو "الاستعلاء على قوى الأرض الحائدة عن منهج الإيمان وعلى قيم الأرض التي تنبثق من أصل الإيمان وعلى تقاليد الأرض التي لم يصنعها الإيمان وعلى قوانين الأرض التي لم يشرّعها الإيمان وعلى أوضاع الأرض التي لم يصنعها الإيمان."[7] والمقصود طبعاً في هذا السياق الحديث عن الشريعة الإسلامية التي تتأسّس لغوياً على فصل بين ما هو إسلامي وغير إسلامي، وكأنّ الشرائع الأخرى غير منزّلة، فهي تؤسّس للخلاف والصدام بديلاً عن التوافق والحوار، وهي كثيراً ما تضيق دائرتها لتؤول إلى شريعة الفرقة أو الحزب، تكفّر بتلك الآليّة كل خصومها الفكريّين والسياسيّين من منطلق احتكار الحقيقة الدينيّة والاستئثار برأس المال الرمزي للإسلام الذي يجعل "أثرياء الإيمان" ناطقين من موقع الاستعلاء، ورغم ما يوهم به بعضهم من الاعتدال والوسطيّة التي يدعو أصحابها إلى نبذ التكفير وتجنبه، فإنّهم سرعان ما يفعلون ما عنه نهوا، فيوسف القرضاوي مثلا دعا إلى عدم الغلوّ في التكفير، ولكنه ضبط قائمة لمن يجب تكفيرهم في ما سماه اعتدالا فضمّت الشيوعيّين المصريّين والحكّام العلمانيّين ورجال الأحزاب العلمانيّة وأصحاب النحل التي مرقت من الإسلام مروقا ظاهرا، مثل الدروز والنصيريّة والإسماعيليّة، وأمثالهم من الفرق الباطنيّة، فيصير الإيمان أرضا تحتكرها الفرقة الناجية ويمنع المعارضون السياسيّون من دخولها، فأرض الإيمان هي أرض تحتكر فيها الشرعيّة الدينيّة والسياسيّة.

[6]- أبو الأعلى المودودي، **نحن والحضارة الغربيّة**، ط1، السعودية، الدار السعودية للنشر والتوزيع، 1984، ص ص 71-72

[7]- سيد قطب، **معالم في الطريق**، ط1، مصر، دار الشروق، 1989، ص163

فهل يصير بعد ذلك غريبا أن يخرج من رحم هذه الآراء تنظيم القاعدة الذي أعطى أصحابه البيعة والطاعة لأميرهم بالدعوة إلى الإسلام والتبرؤ من الكافرين أحياء وأمواتا وكرها، وبإظهار العداوة والبغضاء لهم ولكفرهم، وعدم اتّباع أهوائهم ومناهجهم واعتزالهم، وعدم مخالطتهم والهجرة والجهاد في سبيل الله[8] وفق هندسة ثنائيّة أساسها تقسيم العالم إلى قوّتين متصادمتين: إخوة مؤمنون محتكرون للخيرات العقائدية المقدّسة، وأعداء كافرون محتكرون للخيرات الرأسماليّة المدنّسة، فلا يطرح هذا التصور إمكانيّات الحوار والتقارب، ولا هو ناظر وراء أسيجته الدوغمائيّة، بل لعلّه عاجز عن تأمّل ذاته في مرآة الواقع الاقتصادي والاجتماعي من أجل أن يصير أكثر تواضعا في فهم الواقع بدل منطق الاستعلاء والغرور.

### 4- لعبة الجهاد:

لعلّ أيّام الربيع الأصولي في أفغانستان هي تلك التي كانت فيها القوّات المقاتلة من المتطوّعين المسلمين الذين يعتبرون أنفسهم مجاهدين تلقى دعماً كبيرا من الولايات المتّحدة الأمريكيّة في ظلّ حرب باردة في الأراضي الأمريكيّة وساخنة على الجبهة الأفغانيّة لدحر العدوّ السوفييتي المشترك: أو الشيطان الأكبر، ذلك أنّه يدعو حزبه إلى الاستيلاء على رؤوس أموال البورجوازيّة، وتحويل الأرض الأمريكيّة إلى غنيمة بروليتاريّة، وهو في نظر المسلمين عدوّ للمؤمنين ذلك أنّه من حزب الشيطان الذي يعتبر الدين أفيون الشعوب، وهي اللعنة التي اختزلت الفكر الشيوعي وجعلته في المتخيّل الأصولي يأمرهم بالسوء والفحشاء، وأن يقولوا على الله ما لا يعلمون، ومن يتّخذ الشيوعيّة وليّا من دون الإسلام؛ فقد خسر خسرانا مبينا، فكانت فتاوى الجهاد ضدّ الشيوعيّة التي نجح الغرب في إيهام المسلمين بأنّها خطر عليهم يفوق الخطر الصهيوني الذي بدأ يزحف على أراضيهم احتلالاً واستيطانا، وهبّ الأصوليون من كل حدب وصوب من الإخوان المسلمين وجماعة الدعوة والتبليغ والحركات الجهاديّة يأتون عبر مكاتب في اليمن والسعودية، ويلقون تسهيلات للسفر ليصلوا إلى إسلام أباد ومنها إلى أفغانستان، ولم تجد تلك الحركة دعما ماليّا فحسب وإنّما "حملة دعويّة كانت عبر بعض العلماء والدعاة وخطباء المساجد، وهي دعوة لتقديم يد العون والمساعدة لرفع معنويّات المجاهدين والإشادة بجهادهم وإلهاب الحماس وإذكاء الروح الإيمانيّة عند السامعين."[9] بطريقة تتّبع اليوم من أجل استنفار المقاتلين باسم الجهاد في أرض الشّام، وكانت أحداث الحادي عشر من سبتمبر تمثّل الانقلاب الخريفي الذي دشّن زمن الصدام بين أمريكا وحلفاء الأمس القريب، "ولماذا لا يكون اعتداء 11 سبتمبر -والحالة هذه- ضربة من وكالة

[8]- انظر: سعيد علي عبيد الجمحي، **تنظيم القاعدة النشأة.. الخلفية الفكرية.. الامتداد (اليمن نموذجا)**، ط1، مصر، مكتبة مدبولي،2007، ص ص 484-485

[9]- المرجع نفسه، ص 292

المخابرات المركزيّة الأمريكيّة؟ هنا أيضا، يعني ذلك افتراض أنّ كل عنف معاد هو في النهاية شريك متواطئ مع النظام القائم."[10] ولكن أين تكمن وجاهة الطرح الجهادي؟ وما الخلل المنطقي الكامن في هذه الدعوات؟

لا يستطيع طرف متحصّن بالخطاب الديني أن يجد حسماً في شرعيّة الجهاد من عدمه إذ تظل مسألة القطع في دلالات النص دعوة إلى التسامح أو العنف غير متحقّقة فالنص القرآني حمّال لوجوه التأويل على اختلافها، فهو الداعي إلى العنف بقوله: "قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ."[11] هو ذاته الداعي إلى السلم: "وَدَّ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ."[12] وبعض الشيوخ من الناطقين الرسميّين باسم الإسلام وأصحاب الحقّ الشرعي في الإفتاء عند مريديهم همْ فيها يختصمون، بل إنّك لترى مشهداً أقرب إلى الفتنة يجد فيه كل فريق حجّيّته من الكتاب والسنة، سواء عليهم أكانوا مقاتلين أم قاعدين، ولذلك فالحسم في المسألة لا يمكن أن يكون دينيّا، وإنما يجب أن يتّجه نحو البحث في الأسس الواقعيّة لكلّ خطاب، حتى ندرك مدى وجاهته المنطقيّة انطلاقا من معايير عقلية، وأوّل سؤال يمكن طرحه على الفكر الجهادي هو ما مدى قدرته على تغيير المشهد الاقتصادي القائم على الاستغلال باعتماد وسيط العنف؟

### 5- غنيمة الجهاد:

لقد مكّنت حرب الإرهاب التي استعرت بعد أحداث الحادي عشر من شتنبر من إيجاد شرعيّة للتدخّل العسكريّ في أفغانستان والعراق، واستطاعت أمريكا أن تضع يدها على مخزون استراتيجي مهمّ من النفط العراقي، وصارت المتحكّم الرئيس فيه بعد أن استباحت أرضه وأعدمت رئيسه ونهبت ثرواته، ولذلك كانت تلك السياسة التي اتبعها الصقور "لعبة قذرة ومعروفة من أجل الهجوم على العراق وتحقيق غايات وسخة بانتزاع الثروات الطبيعيّة من شعبها المستضعف."[13] إضافة إلى الحصيلة الثقيلة من القتلى في واقع عراقي تحوّل إلى جحيم طائفي وساحة حرب لا تهدأ؛ فقد جنت الولايات المتحدة مجالاً، ظلّت تحلم بالاستحواذ عليه منذ أن كانت تستعمره بريطانيا، ففي ذلك الزمن المبكّر كانت البعثات السرّيّة الأمريكيّة نهمة لاكتشاف النفط والتخطيط للاستيلاء عليه، وأخيرا سقط الاتحاد السوفييتي الذي كان حصن تلك الدول وطرف التوازن العالمي،

[10]- جان بودريار، **روح الإرهاب**، (ترجمة بدر الدين عكرودي)، ط1، مصر، الهيأة المصرية العامة، 2010، ص 51

[11]- التوبة / 29

[12]- البقرة / 109

[13]- إليهاندرو كاسترو أسبين، **إمبراطورية الإرهاب**، (ترجمة وفيقة إبراهيم)، ط1، بيروت، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، ص 109

فوجد العراق نفسه وحيدا في مواجهة أقوى الترسانات العسكريّة في العالم، تحوّل في أيام معدودات إلى أرض مستباحة يحكمها الأمريكيّون ويعبثون في أرضها كيفما شاءت مصالحهم. وتلك الثمرة الأولى التي جنتها الولايات المتحدة الأمريكيّة فحقّقت ما تصبو إليه من "مبدأ الاحتواء "containment" ويرى نعوم تشومسكي (Noam Chomsky) أنّ هذه السياسة الخارجيّة هي الوجه المقابل للسياسة الداخليّة في صناعة الموافقة، وأنّ السياستين متكاملتان ومتشابكتان، حيث يلزم تعبئة المواطنين بالداخل لدفع فاتورة سياسة الاحتواء الخارجيّة، وكما أنّ كلّ الأدلّة تشير منذ الحرب العالمية الثانية إلى أنّ الهدف الرئيس لسياسة الاحتواء هو إعطاء الطابع الدفاعي (إذا ما لم يكن أعداء الديمقراطيّة من الشيوعيّين فهم من الإرهابيّين) والغطاء الشرعي لمشروع أمريكا في إدارة العالم وبناء نظام عالمي تسيطر عليه الولايات المتحدة، ويتمّ من خلاله نموّ الأعمال الأمريكية وازدهارها، وتكوين منظومة عالميّة تشكّل من النخبة الحاكمة في جميع بلدان العالم تؤدّي مكوّناتها المختلفة مهامَّ محددةً لصالح "الشركات الأمريكيّة."[14]

أما على المستوى النفسي، فقد تحوّل المسلم في وعي الغرب من "بدوي يلبس مرقّعات وخلفه مجموعة من الخيام وصحراء قاحلة."[15] إلى إرهابي يحمل قنبلة ويحاول وضعها في طائرة أو قطار. ولقد تولّدت هذه الصورة من رحم صورة ثلاثيّة الأبعاد كانت ترسم للعربي في العالم الغربي "إحداها صورة العربي المصري المنتصر في الحرب، والعربي النفطي الذي يضغط بماله لابتزاز الغرب، والعربي الفلسطيني الذي يقلق العالم بممارساته التي يصفونها بالإرهابيّة."[16] ولقد استطاعت منظومة الإرهاب التي روّج لها الإعلام الغربي والأمريكي خاصة تعميم صورة الفلسطيني الإرهابي، لتصير صورة للمسلم عامة، وخلف ذلك التعميم حجج للصهيونيّة العالميّة بأنّ كل ما قامت به على أرض فلسطين من قمع وقتل، إنّما هو في الحقيقة استباق لحرب الإرهاب على أرضها، وهو في النهاية إغراق للعالم الإسلامي في حرب وهميّة تحوّلت بفعل الأيّام من "منهاتن" إلى جبال "تورابورا" ومحافظات العراق وثغور سوريا، وجبال تونس وحدودها، فانحسر ذلك الإرهاب حتى صار وبالا على المسلمين وقد كان في أصل تكوينه حرباً ضد السوفييت ثم الأمريكيّين، ولذلك فالشكّ في الإرهاب يصير أمراً بديهيّا والأسئلة حول تمويله وحقيقة أهدافه ومقاصده صارت ملحّة، فلقد غرق العالم الإسلامي في خرافة المواجهة وأسطورة صدام الحضارات ليخرج الغرب في كل مرّة منتصراً في حروبه الاستعراضيّة التي لا تتكافأ فيها القوى، وتزداد الجراح السياسيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة عمقاً في جسد الدول الإسلاميّة، فحيثما حلت الترسانات العسكريّة للطائر المحكي إلاّ وبقي صدى القنابل والتفجيرات

[14]- جون برنكر، **الاغتيال الاقتصادي للأمم اعترافات قرصان اقتصاد**، (ترجمة مصطفى الطناني وعاطف معتمد)، ط1، مصر، الهيأة المصرية العامة للكتاب، 2012، ص 14

[15]- علي صالح مولى، **الهوية.. سؤال الوجود والعدم**، ط1، تونس، مطبعة التسفير الفني، 2006، ص 72

[16]- عزت عوت، **صورة العرب والمسلمين في العالم**، ط1، القاهرة، مركز الحضارة العربية، 2003، ص 23

والصراعات الطائفيّة في تلك الدول، ولقد استطاعت الولايات المتحدة تصدير أزماتها الماليّة من خلال خلق مبرّر جديد لتروّج مصانع الأسلحة بضائعها في العالم؛ فالأسلحة لا رواج لها إلاّ بخوف كامن في العالم من تنّين الإرهاب، ذلك الذي يختزل الواقع في وعيه الأسطوري بوحش الإسلام الكاسر. وأمريكا وحدها القادرة على تقمّص دور "أوديب" لتقتل الوحش، لأنّها تدرك لغته وتناوره بأسلحته: بالصّورة يُصنع الإرهاب وتصيّره المخابر الإعلاميّة حقيقة، وهو يقف كالوحش على أطراف المدن متحصّنا بالجبال والمغارات النائية، المهد الطبيعي للوحوش منذ أن نشأت الأساطير، عدوّه العمران والحضارة، ولهذا فهو يرفض المدنيّة ويفتك بالمتقدّمين، وتشتغل الآلة الاقتصاديّة دوما خوفاً من هذا الوحش الكاسر، لتحافظ الولايات الأمريكيّة على دور البطل الذي لا يهزم كأفلام هوليود، وفي كلّ فصل من فصول سياستها الخارجيّة مواجهة جديدة تفتك فيها بوحش على أنقاض وحوش سابقين، فقد خلت حلبة الصراع البارد من العدو السوفييتي وما عاد يملأ فراغ المشهد البطولي سوى خصم جديد، وإن كان عدواً ورقيّا يصنعه التضخيم الإعلامي.

**6- شيطان الإرهاب الرجيم:**

لقد صار "الإرهاب" شيطاناً رجيماً في الوعي الغربي، وذلك باعتباره الرمز الأقوى للشرّ العالمي في نظر الغرب، وهو خفيّ لا يتجلّى للرائي، وإنّما يعرف بآثاره تفجيراً للطائرات وانتحاراً في أماكن مختلفة، ثم يختفي كسائر الشياطين في الأماكن القصيّة، لقد توارى الشيطان الأسطوري من الوعي الغربي، وقد أنست المدنيّة حكاية العصيان الأوّل، ولكن ولدت حكاية الشيطان "الإرهابي"، فبعد أن كان مطيعاً لربّه ملاكا طاهرا يأتمر بأمره في حربه ضد السوفييت في أفغانستان، فسق عن أمر ربّه، وغوى حين رفض الانصياع فصار ملعونا إلى يوم الدين، وخرج من الحضارة ليغوي الناس باتّباعه ويزيّن لهم العنف والقتل باسم المجاهدين، ومثلما لعب الشيطان دوره الطبيعي في الكون خصما ضعيفا ومبرّرا للخطاب الديني، إذ صارت الحكمة في امتزاج الخير بالشر على حد عبارة الجاحظ، فإنّ الحكمة من الشيطان الإرهابي كانت تبرير الخطاب الملائكي للولايات المتحدة الأمريكيّة مدافعة عن الحرّيّة والديمقراطيّة ضدّ أعدائها، ولذلك صارت كل الغزوات التي قام بها الجيش الأمريكي ضدّ فلول القاعدة وينابيع الإرهاب تكتسب الشرعيّة الأخلاقيّة للدفاع عن صرح الخير والحرّيّة ضد الشيطان الإرهابي. ولا غرابة حينئذ أن تحمل بعض الحروب ثوبا دينيّا، كحديث بوش عن حرب صليبيّة تستعيد الوعي الديني الراسخ بأنّ المؤمن يحارب دوما ضدّ أعدائه الأشرار والكافرين من حزب الشيطان. وفي النهاية لم يمثّل الشيطان في الأسطورة الدينية أزمة للإله، وإنّما خُلق ليكون عدوّا للبشر يعطي الاختبار الوجودي معناه، ويهب الخير دلالته من تضاده مع الخير، ويحق القول على أمريكا التي لم يعد الإرهاب يمثل عقبة أمام مصالحها أو تهديدا حقيقيّا لأمنها، وإنّما صار داءً في المجتمعات الإسلامية يمزّق أوصالها سنّة وشيعة، أنصارا للسلطة ومعارضين، علمانيّين وإسلاميّين، يدخل الإرهاب ما بين الأخ وأخيه

ليبذر التكفير ويزرع القنابل، بحثا عن تحقيق حلم الإسلام ودولته الشرعيّة، بينما توارى شبح الإرهاب من الدول الغربيّة، ولم يعد سوى حكاية مخيفة يزرعها الإعلام في المتخيّل كي لا يذهب السيّاح إلى المناطق القصيّة. وتجني الشعوب العربية الإسلاميّة أشواك ذلك البذر لتصير الصورة فائضة على كل العرب المسلمين.

### 7- مدّ الإرهاب وجزْر الإسلام السياسي:

لقد اصطدم الإسلام السياسي بعقبة الممارسة، وقد كان يعد جماهير المسلمين بأنّه سيقدّم الحلّ السحريّ لأزمات الواقع، وقد صوّره خلاء من الأخلاق وفسادا متناهياً في الانتشار، ولكنّه كان كحكاية الغول في تصوّر الصغار، لا يحقّق نجاعته إلاّ إذا ظلّ وهما يراود أذهان الأطفال فيتصوّره كل طفل أنموذجاً للرعب ورادعا ميتافيزيقيّا، ولكنّ زوال أسطورة الغول يكون يوم تنكشف الحقيقة العقلانيّة، ويتحوّل الوهم من المتخيّل الذي يرسم آفاق الانتظار إلى الواقع الذي يبحث عن التجسيد والحقيقة، لقد كانت أوهام الإسلام السياسي أشبه بأسطورة الغول، ما إن تضاء الأنوار حتى تتبدّد الصورة ويضيع المعنى. ولا تزال الجماعات الأصوليّة المؤمنة بالعنف تتصوّر نفسها الحلّ السحري لكلّ معضلات المسلمين، ولكنّ أكبر صدمة لهذا الفكر يمكن أن تحدث ستكون يوم يمنحون الفرصة لحكم المسلمين، لأنّهم سيجدون أنّ متخيّلهم الذي يرى الواقع عورة لابد من تغطيته وامرأة لابد من سجنها وفسادا يجب إصلاحه، هو في الحقيقة أكبر من تلك الصورة المختزلة، وأنّه لا يمكن بكلّ الأسلحة الفكريّة القديمة أن يصلح الواقع؛ فالواقع سيكون أوّل خصم للفكر المؤمن بالماضي، لأنّ الواقع بطبعه حاضر يتطلّع إلى المستقبل.

### 8- روح الانغلاق:

إنّ أطروحات السلفيّة الجهاديّة، مثلما روّج لفكرها "الإمام الخفي" أسامة بن لادن يدّعي فيها أنّه يخوض حربا دينيّة اقتصاديّة، وبأنّ الغرب يريد إبعاد الناس عن طاعة الله ليستعبدهم ويحتلّ بلدانهم وينهب ثرواتهم، ولذلك فقد كانت كلّ خطب "أسامة بن لادن" حثّا على الجهاد والمواجهة وتشريعا للقتال، كقوله: "رسالتي هذه إليكم بخصوص التحريض ومواصلة الحثّ على الجهاد، لدفع المؤامرات العظام التي حِيكت وتحاكُ ضدَّ أمتنا، خاصةً وقد ظهر بعضها ظهوراً بيّنا كاحتلال الصليبيّين بمناصرة المرتدّين لبغدادَ دارِ الخلافة تحت خدعة "أسلحة الدمار الشامل". وكذلك المحاولة الشرسة لتدمير المسجد الأقصى، والقضاء على الجهاد والمجاهدين في فلسطين الحبيبة، تحت خدعة "خارطة الطريق ومبادرة "جنيف للسلام." وكذلك الحملات الإعلاميّة الصليبيّة على الأمّة الإسلاميّة."[17] فهل يمكن أن يكتب لهذه المواجهة التي تقف في وجه أقوى الدول المسلحة

[17]- من خطاب أسامة بن لادن: توجيهات 3 http://www.tawhed.ws/.

أن تحقّق نصرا فعليّا؟ إنّ ذلك لأمر مستعص في ظل غياب حلف عسكري قويّ يدعم القاعدة والتيّارات الجهاديّة عامة، فهي حركات معزولة كثيرا ما تلجأ إلى أسلوب التخفّي والعمليّات المحدودة، وقد فقدت بحكم الأيام طابع المفاجأة وكشفت ألاعيبها وتمّت مراقبة الناشطين فيها حتى صاروا تحت السيطرة، ولذلك فلا معنى للحديث عن كيان سياسي لا يستطيع أن يظهر علنا، وأن يرفع راية دولة مستقلّة، ومهما حمل من رايات المقدّس وأسماء الله، فإنّ ذلك لا يمكن أن يحجب ضعف تلك التيّارات وعجزها عن تنظيم صفوفها لتتحوّل من طور العمل السري إلى إقامة كيان سياسي، لأنّها ستكون حتما على رأس قائمة الدول المارقة، ولن تجد الولايات المتحدة الأمريكيّة حرجا في حثّ حلفائها على غزوها سعيا إلى الحفاظ على أمنها، ولذلك فالطابع الصّداميّ والوجه العنيف الذي ظهرت به هذه التيّارات يجعلها عاجزة عن التحوّل من شكلها السائد إلى شكل كيان سياسي، ولذلك فقد كتب على هذه التيّارات الانغلاق والعجز عن الظهور لا في الساحة الدوليّة فحسب، بل في الساحات الوطنيّة أيضا، فقدر هذه الحركات أن تعيش شبحا في الظلمات لا يرى نور الحكم ودواليبه، وإن كتب له القدر يوما تولّي مقاليد الحكم فسيكون مرمى لكل الرجوم الدوليّة. فقد ارتبطت السلفيّة الجهاديّة بالإرهاب، باعتباره "الاستخدام المحسوب للعنف أو للتهديد بالعنف بغية تحقيق أهداف سياسيّة، دينيّة أو إيديولوجيّة من حيث الجوهر... وذلك من خلال التهويل، والإكراه أو بثّ الخوف."[18] ولذلك، فهي في خانة العنف اللاشرعي الذي يمكن التصدّي له وفق المواثيق العالميّة وقدرة الأساطيل الحربيّة وبتفويض من المنظّمة الأمميّة.

### 9- الخطاب والواقع:

يتأسّس الإسلام الأصولي المؤمن بخيار العنف على مرجعيّة نصّيّة، ولا يقوم على مقاربة الواقع، ذلك أنّ مراجع المواجهة وحلول الأزمات هي دائماً آيات قرآنيّة تمثّل بالنسبة إلى أصحابها حلاّ نهائيّا، باعتباره خطابا إلهيّا حاسما لا تنتهي صلاحيته، ويختزل الحلّ السحري لكلّ مشاكل الأمّة، إن صح فعلا الحديث عن الأمّة في ظلّ وجود دول قطرية تتباين مصالحها وتختلف قوانينها وعملتها وآمال شعوبها، والجهاد مرادف للقتال، ولذلك فالحلّ العسكري في نظر القاعدة وزعيمها الخفي يكمن في الحرب، وهو تصوّر لا يتأسس في الواقع، وإنّما يتأسّس في النص القرآني آيات تحثّ على الجهاد، ومادام الحسم بأنّ الجهاد دوما يرتبط بالحرب، فلنساير هذه الفرضيّة لنرصد نتائجها: إذ النصّ القرآني الذي توجّه إلى المسلمين الأوائل إنّما أسّس دعوته على واقع تشنّ فيه الحرب ضدّ جماعات تتقارب قواها وتستعمل أسلحة متكافئة، وهي حروب محدودة نتائجها (غنائم) وليست حربا مفتوحة لا نهاية لقائمة الكفّار فيها، فهل يستقيم أن يكون الحكم نفسه لجماعات تمتلك أسلحة بدائيّة تحاول

[18]- نعوم تشومسكي، **الهيمنة أم البقاء**، (ترجمة سامي الكعكي)، ط1، بيروت، دار الكتاب العربي، 2004، ص 222

فتح جبهة ضدّ أقوى الترسانات العسكريّة المستعينة بحلفائها الأقوياء في الأرض والأقمار الصناعيّة في السماء، ألا يفرض الواقع لكل من يريد المواجهة أن تكون له حظوظ في النصر؟ فأيّة خرافة مواجهة تروّج لها القاعدة؟ أليس وهما الاعتقاد أنّ تدمير مبان سيؤدي إلى تدمير حضارة؟ وهل يعدّ قتل الأبرياء سبيلا ناجعا لنشر الإسلام، وجعل الناس يدخلون في دين الله أفواجا؟ أليس التعامل مع الشعوب وفق هذا المنظور الضيّق الذي يرى المختلفين كافرين بعاجز عن النفاذ إلى المنظومة الدوليّة والتعامل مع الدول على اختلاف حضاراتها؟ ومن ذا الذي سيتعامل مع جماعات تتصوّر نفسها الوحيدة على حقّ وسط جموع الكافرين، وتتصوّر قدرتها على جعل "اليهود والنصارى" يدفعون الجزية صاغرين؟ أليس المدّ الإرهابي في دول الربيع العربي وجزْر الأعمال التفجيريّة في الدول الغربية دليلا على عجزها الخارجي وتمرّدها الداخلي على دول تشهد مرحلة اضطرابات وضعف في ظل الانتقال السياسي؟

### 10- المفهوم الضيّق للهويّة:

تنطلق الجماعات المؤمنة بالفكر السلفي العنيف من مسلّمات الهويّة المنغلقة التي ترى المسلم فقط من اتّبع صراطا واحداً من العقيدة قُدّ على مقاس فكرها، ولذلك فهي تعيش كلّ مخزون الفتنة التاريخي، وصراع الفرقة الناجية ضدّ فرق الهالكين، وهي تفرض بخطابها إقصاء كلّ المختلفين، قد كانت الغلبة السياسيّة تعطي هذا الخطاب شرعيّة، ولكنّها اليوم لا يمكن أن تفرض ذلك المنطق نفسه، فكل فرقة ترى نفسها على حقّ وتتّهم سواها بالضلال المبين. فكيف لمنظومة سياسيّة تقوم على الإقصاء الداخلي أن تجد لنفسها سبل التواصل مع شعوب أخرى تتباين أديانها وتتنوّع أنظمتها السياسيّة؟ إنّ الخلافة مشروع سياسي يتأسّس على الخلاف، ولا يمكن أن يصير أمرا واقعا إلاّ إذا مُنحت الجماعة التي تؤمن به تفويضا إلهيّا بأنّهم نوّاب السماء على الأرض، وأنّ من عصى أولي الأمر حَقّ عليه العذاب في الدنيا قبل الآخرة، فهذا النظام لا يستعيد جهاز الخلافة شكلا سياسيّا، وإنما يستعيد معه استبداد الحكّام وحاكميّتهم الإلهيّة، وهو منطق يتصوّر الدول على أساس الهويّة الدينيّة، والحال أنّ الدولة وفق المفاهيم المعاصرة هيأة سياسيّة تقوم على أساس رابط الانتماء إلى فضاء جغرافي له حدوده السياسيّة المعترف بها دوليا لتسهيل المعاملات بينها وبين سائر الدول، وهي تجمع المواطنين على أساس الاشتراك في الحقوق والواجبات وتكامل المصالح بين أفراد الوطن الواحد، وتسهر القوة التنفيذيّة على حماية الأشخاص الملتزمين بالقانون والحرص على تطبيقها بما يضمن العيش المشترك بين جميع المواطنين، والدولة القويّة هي تلك التي تؤسّس علاقات خارجيّة متينة ولا تبشّر بمشروع دولة منعزلة "لأنّ المحكّ الحقيقي لصلابة أيّة دولة يكمن في علاقتها بالخارج."[19] ولذلك فقد صارت الروابط الجديدة التي تأسّست

[19]- عبد الله العروي، **مفهوم الدولة**، ط9، لبنان/ المغرب، المركز الثقافي العربي، 2011، ص 196

عليها الدول تمثّل روح الهويّة الوطنيّة، وصار تجاهل الهويّة الوطنيّة والحديث عن الأمّة الإسلاميّة تجاهلا للواقع وتأسيسا للوهم. و"الخلافة الراشدة تقوم على رؤية طوباويّة لا تخضع لسنن الواقع والتاريخ من جانب، وهي من جانب آخر ممارسة للسياسة في دائرة الدين... كما أنّ تأصيل السياسة في الدين وجعل الخليفة نائباً عن الله أو عن الرسول دفع أيضا بفلسفة السياسة في الإسلام إلى منطقة مغلقة"[20]، وصار تجاهل الدولة الوطنيّة والعلاقات الدوليّة أمراً يجعل الحديث عن دولة الخلافة بوصفه تأسيسا لدولة في كوكب آخر غير كوكبنا لعلّه المتخيّل السلفي. فهل يكمن الحل في الخيار الديمقراطي؟

## سراب الديمقراطيّة:

### 1- مدخل لفهم الديمقراطيّة:

لقد نشأت الديمقراطيّة نتيجة جهد إنساني حاول به البشر تنظيم العلاقات بينهم وإيجاد حلول سلميّة لانتقال السلطة تجنّبه سفك الدماء، والديمقراطيّة تهب البشر مساواة في الحقوق والواجبات، وتمنح جميع المواطنين حقّ الترشّح للمناصب السياسيّة، وهي تشرّع لحكم لا يقوم على أساس هيمنة طرف على آخر، وإنّما يحوّل جميع الأطراف إلى فاعلين سياسيّين وفق منطق الانتخاب. "إنّها نظام سياسي اجتماعي اقتصادي يقوم على ثلاثة أركان:

1- حقوق الإنسان في الحرّيّة والمساواة وما يتفرع عنهما كالحقّ في الحرّيّات الديمقراطيّة والحقّ في الشغل وتكافؤ الفرص...إلخ.

2- دولة المؤسّسات، وهي الدولة التي يقوم كيانها على مؤسّسات سياسيّة ومدنيّة تعلو على الأفراد مهما كانت مراتبهم وانتماءاتهم العرقيّة والدينيّة والحزبيّة.

3- تداول السلطة داخل هذه المؤسّسات بين القوى السياسيّة المتعدّدة، وذلك على أساس حكم الأغلبيّة مع حفظ حقوق الأقلّيّة."[21]

ولقد تحوّلت الديمقراطيّة من قيم غربيّة إلى قيم كونيّة بعد الانتصار السياسي الذي حقّقته الولايات المتحدة الأمريكيّة على عدوّها اللدود الاتحاد السوفييتي، فقبل سقوط المعسكر الشيوعي كانت مفاهيم الاشتراكيّة والثورة البروليتاريّة والقوميّة مفاهيم مزاحمة للديمقراطيّة جعلت من سوقها الرمزيّة تشهد تنافسا حادا مع بضائع

[20]- علي الصالح مولى، **الدولة الوطنية وسؤال الشرعيّة**، ط1، تونس، مطبعة التسفير الفنّي، 2006، ص 150

[21]- محمد عابد الجابري، **الديمقراطيّة وحقوق الإنسان**، كتاب في جريدة، عدد95، الأربعاء 5 تموز (يوليو) 2006

المعسكر الشرقي، وروّج المعسكر الغالب قيمه باعتبارها الحلّ السحري لمعضلات الإنسانيّة، ونجح في إقناع الشعوب بأنّ الأنموذج الأرقى الذي تتحقّق به أعلى المراتب الإنسانيّة هي الديمقراطيّة، "فلدى كل عصر ميل إلى تمجيد منجزاته بلهجة المؤمن إيمانا عميقا، إذ يفرط في التعميمات عن روح العصر، يسارع إلى الاستشهاد "بالروح التاريخية العالميّة"، بينما لا يعدو الأمر أن يكون في الحقيقة مجرّد حماية لمصالح القوّة المعرّضة للخطر... ونظراً إلى كون "ديمقراطيّة الغرب الليبراليّة" أثبتت في هذه التطوّرات أنّها النظام الاقتصادي الأكثر نجاحا، فإنّ "فوكوياما" يجادل بأنّها قد تشكّل "نقطة النهاية لتطور البشريّة الإيديولوجي" إنّ النجاح الفعلي لهذا النموذج من التنظيم السياسي، من حيث سياسة القوة، يمكن المدافعين عن هذا النظام مثل "فوكوياما" من إهمال التحليل النقدي لمفهوم الديمقراطيّة إهمالا يكاد يكون تامّا، والقول بوجود إجماع مرموق على شرعيّة الديمقراطيّة الليبراليّة، باعتبارها نظاما للحكم، "حتّى وإن انتشر في عدد كبير من الدول نظام قيم يختلف عن ذلك اختلافاً تاما. والتصريحات القائلة بأنّ هذا النظام خال من أيّة تناقضات داخليّة جوهريّة تحول فعلا دون مواجهة عقلانيّة غير متحيّزة مع الهياكل الأساسيّة لهذا الأنموذج من الديمقراطيّة. ويزيد في تعزيز هذه التفسيرات الاستنتاج الخاطئ لسياسة القوّة، القائل بأنّ فشل النموذج المناوئ قد أثبت بالفعل صحّة النظام الغربي؛ أي كفايته الديمقراطيّة."[22] ولكنّ مفهوم الديمقراطيّة المتلازم مع مفهوم حقوق الإنسان، ظلّ دوما مرتبطا بالجانب السياسي غير عابئ بالجوانب الاقتصاديّة والاجتماعيّة والثقافيّة، ذلك أنّ طرح الديمقراطيّة يظلّ في حاجة إلى فهم الاختلافات الحضاريّة والثقافيّة بين الشعوب والأولويّات التنمويّة التي تجعل الحديث عن الديمقراطيّة في بعض المجتمعات أشبه بلبس الجائع للحرير، ولذلك فقد أخذت الديمقراطيّة وحقوق الإنسان حيزا كبيرا من التسويق الفكري والإعلامي جعلها من المقدسات التي تضارع الشريعة الإلهية المنزلة، حتى أنّها صارت مصدر فخر الغرب وسرّ رقيّه، وصار استنقاص الشعوب والحطّ من شأنها يمرّ حتماً من بوابة الديمقراطيّة وحقوق الإنسان، بل إنّها ذريعة لشنّ الحروب وفرض الحرّيّة بالقوّة؛ فهل الديمقراطيّة هي ذلك المقدّس الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه؟

### 2- حلم الديمقراطيّة في الوطن العربي:

عاشت الدول العربيّة الإسلاميّة بعد سقوط الخلافة العثمانيّة مرحلة من الاستعمار السياسي الذي كان يهدف إلى الهيمنة السياسيّة والاستغلال الاقتصادي، وخرجت تلك الدول باستقلال سعت به إلى بناء الدولة الوطنية، وظلت تلك الأنظمة السياسيّة التي اختارت الحكم الرئاسي أو الحكم الملكي تتطلّع في متخيّلها إلى الديمقراطيّة،

[22]- هانس كوكلر، **تشنّج العلاقة بين الغرب والمسلمين الأسباب والحلول**، (تعريب حميد لشهب)، ط1، بيروت، جداول للنشر والترجمة والتوزيع، 2013، ص ص 22-23

باعتبارها الحلّ السحري لكل محنها، ولعلّ أكبر الانتقادات التي وجّهت إلى كلّ التجارب السياسيّة القائمة في العالم العربي والإسلامي، إنّما كانت في عجزها عن تحقيق الديمقراطيّة؛ فالحقبة الناصريةّ مثلا ظلّت تحمل دوما وصمة اضطهاد الشيوعيّين والإسلاميّين، والنظام العراقي خرج رئيسه بلقب الدكتاتور، وأكبر الانتقادات التي يمكن أن تتوجّه إلى الحكم الملكي تظلّ في كونه حكما فرديّا يعادي الديمقراطيّة، والنقد الإسرائيلي الأكبر للدول العربيّة هو دوما اتّهامها بأنّها دول غير ديمقراطية، ولذلك فقد صارت الدكتاتوريّة هي الإثم الأعظم الذي يوجّه إلى الأنظمة القائمة بعد الاستعمار، وأكثر الانتقادات الإعلاميّة في القنوات التي حملت على عاتقها مهمّة الانتقال الديمقراطي في الدول العربيّة يوجّه دوماً إلى أنظمة استبداديّة لا تعطي الشعوب حقّها في التعبير عن الرأي أو المشاركة السياسيّة، هكذا ترسم كلّ المواقف الداخلية والخارجيّة صورة للديمقراطيّة، وكأنّها الحلّ السحري لكلّ المحن، إنّها كالحجّ في المتخيّل الشعبي الذي يتصّوره ماحياً لكل الذنوب، واسترجاعا لعدّاد الخطايا إلى درجة الصفر، وهي الطهارة الكبرى التي تذهب كلّ مدنّسات الدكتاتوريّة، ولهذا فقد دقّت كلّ الطبول، وأقيمت الأفراح في أرجاء الوطن العربي يوم بدأت تلك الأنظمة تتهاوى على وقع الاحتجاجات الشعبيّة، وولادة الديمقراطيّة. ولكن حين نزلت تلك الطاقة السحريّة إلى أرضنا، هل حققت فعلا كل تلك الأحلام الورديّة؟

### 3- واقع الديمقراطيّة في دول الربيع العربي:

لقد مكّنت الديمقراطيّة من صعود "الإسلام السياسي"[23] إلى الحكم، في مصر وتونس، وفي المثال الأوّل خرج الشعب وخطب العسكر لينهي تجربة فاشلة سواء أأقررنا بشرعيّة الثورة الثانية للشعب المصري أم سايرنا القائلين بأنّ العسكر كان من المنقلبين؛ فالنظام الذي يخرج ضدّه بعد سنة محتجّون يملؤون الساحات رفضاً له هو حتما فاشل مهما كانت التبريرات، والحكم الذي لا يستطيع الحفاظ على نفسه هو حكم فاشل. فالنجاح في الفعل السياسي يبدأ من القدرة على إقناع الأغلبيّة، ولن تجدي الصناديق نفعاً ما دامت الشرعيّة الانتخابيّة قد ولّدت في الشارع فقدانا للمشروعيّة، وهي التزام الحاكم بالميثاق الذي تعاقد عليه مع شعبه. وقد كشف الواقع أنّ ترديد عبارة الشرعيّة[24] لن يقوّي الشرعيّة، وأنّ العجز عن فهم العلاقات الدوليّة والساحة السياسيّة يؤديّ دوما إلى الانتقال الفجائي والسريع من القصور إلى السجون. وسواء أتحدّثنا عن ثورة مصريّة جديدة أم تحدّثنا عن "انقلاب عسكري"، فإنّ الإقرار بالواقع أمر حتمي، وهو فشل الأنظمة "المتأسلمة"[25] في

[23]- نستعمل الإسلام السياسي للحديث عن الحركات التي جعلت الإسلام شعارا لها وهي في طور الوجود بالقوّة بمعنى وضعها قبل تولّي الحكم.

[24]- عنينا آخر خطاب ألقاه مرسي وردّد فيه عبارة الشرعيّة، وهي أشبه بمقدّس يتلوه صاحبه قبل أن يفنى سياسيّا.

[25]- نستعمل هذا المصطلح للتعبير عن تلك التجارب السياسيّة بالفعل التي كشفت اختلافا جوهريّا بين شعاراتها وممارساتها.

الحفاظ على موقعها السياسي. وإنّ العزف على وتر الانقلاب لكسب تعاطف جديد لهو تغطية عن فشل المسار الذي اتبعه "الإخوان المسلمون" حين بلغت التطلّعات الشعبيّة ذروتها، ذلك أنّ الانقلابات لا تكون في الساحات العموميّة وبالغلبة الشعبيّة، وإنّما تكون في المجالس الضيّقة وبالاجتماعات السرّية. أما في المثال الثاني، وهو تونس فقد تحقّق بالحوار والتوافق إنهاء الدستور بعد مخاض عسير، وكتبت بدماء المناضلين السياسيّين الفواصل بين كلّ حكومة وأخرى؛ فاغتيال "شكري بلعيد" أسقط حكومة الجبالي، وجاء بحكومة علي لعريض، واغتيال "محمد البراهمي" أسقط حكومة على العريض، وتولّت مقاليد الحكم حكومة كفاءات وطنيّة، وبعد تجربة حكم دخلها حزب النهضة "إسلاما سياسيّا" خرج في نهايتها علمانيّا منسلخا عن الإخوان المسلمين، واختار نهجا في الحكم كان يلعنه، ولئن اتّفقت كل الأطراف على القول بفشل التجربة السياسيّة في حقبة حكم الترويكا، فإنّ تقييم أسباب الفشل يظلّ محل اختلافات سياسيّة يلقي فيها كلّ طرف من الأطراف أسباب الإخفاق على خصمه.

### 4- الديمقراطيّة: من الوجود بالقوّة إلى الوجود بالفعل

لقد نشأت الديمقراطيّة غريبة عن ديارنا غير أصيلة في ثقافتنا "فالديمقراطيّة كما نفهمها الآن، كانت غائبة تماما عن نظام القيم في الثقافة العربيّة الإسلاميّة بصيغه الثلاث، وبعبارة أخرى لم تكن حاضرة في حقل تفكير علماء الإسلام من متكلّمين وفقهاء وفلاسفة ومؤلّفين في الآداب السلطانيّة. غير أنّ هذا الغياب، بالأمس، لا يعني استحالة إمكانيّة تأسيسها وتبيئتها اليوم في الثقافة العربيّة الإسلاميّة. إنّ أفق تفكير أسلافنا كان يتحدّد بمعطيات مرحلة تاريخيّة حضاريّة معيّنة، كانت الديمقراطيّة فيها من مجال "ما لا يقبل التفكير فيه"، وذلك على العكس من المرحلة التاريخيّة التي نعيشها التي تجعل الديمقراطيّة على رأس المفكّر فيه."[26] ولقد كان ذلك سببا في الصدام القائم بين فكر يحرص على مرجعيّاته التراثيّة وآخر مفاهيمه حديثة، وهو سرّ الأزمة التي اصطدم بها الإسلام السياسي، حين أراد أتباعه ترجمة تلك المفاهيم التراثيّة على أرضيّة واقعيّة، فخيار الجهاد صار مستبعدا في ظلّ اختلال موازين القوّة، والخلافة السادسة التي بشّر بها بعض زعماء "الإسلام السياسي"[27] ما عاد لها من وجود في ظلّ احتمالين لا ثالث لهما: رئاسي أو نيابي، وأضحى شعار "تطبيق الشريعة" كسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّى إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا، وأسطورة الاقتصاد الإسلامي تظلّ

[26]- محمد عابد الجابري، **قضايا في الفكر المعاصر، العولمة – صراع الحضارات– العودة إلى الأخلاق- التسامح**، ط1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 1997، ص 79

[27]- عنينا "حمادي الجبالي" الذي ترأس الحكومة الأولى للنهضة وحلفائها، وقد ألقى خطبته التي تحدّث فيها عن الخلافة السادسة في إحدى الاجتماعات الحزبيّة بمدينة سوسة بقوله: يا إخواني أنتم الآن أمام لحظة تاريخيّة، أمام لحظة ربّانية في دورة حضاريّة جديدة إن شاء الله في الخلافة الراشدة السادسة إن شاء الله، مسؤوليّة كبيرة أمامنا والشعب قدّم لنا ثقته ليس لنحكم لكن أعطانا ثقته لنخدمه، إيّاكم وعقليّة الحاكم، أنتم تحمون هذا الشعب إن شاء الله...".

مجرد شعار يرفع، ولا أثر له في ميزانيّات الأنظمة التي رفعت راية الإسلام والجهاد والدفاع عن قضايا الأمّة. فذهب شعار الإسلام وبقي الفعل السياسي بكل مقتضيات الممارسة الماكيفيليّة وروح الانتهازيّة.

لقد أكّد "تشومسكي" (Naom Chomsky) أنّ "مصطلحات السياسة لها معنيان؛ أحدهما معناها المعجمي المتعارف عليه، والثاني معناها الذي يخدم أيديولوجيّة الأقوى، خذ الديمقراطيّة مثلا، معناها اشتراك الشعب في إدارة شؤونه. ولكن عند أيديولوجية الأقوى، تعني الديمقراطيّة نظاما تتّخذ فيه صفوة رجال الأعمال القرارات، ويشاهد عامة الناس ذلك بدل أن يشاركوا كما شرح "والتر ليبمان". مسموح للعامة بالتصديق على قرارات من هم أفضل منهم، وبأن يميلوا بتأييدهم لهذا الطرف مرّة، وللطرف الآخر مرّة أخرى، ولكن عليهم ألا يتدخّلوا فيما لا يخصّهم، مثل السياسة العامة."[28] والديمقراطيّة في تصوّر الأحزاب "المتأسلمة" غنيمة لأتباعهم بالمناصب الإدارية داخل دواليب الدولة والتعويضات المادية على حساب مشروع العدالة الاجتماعيّة، ولذلك فهي تتّبع المنطق الإيديولوجي نفسه الذي قام عليه مشروعها السياسي، احتكار الإيمان يعني احتكارا للخيرات العقائدية ينتج عنه احتكار للسلطة السياسيّة والغنائم الاقتصاديّة، وهي من الأسباب التي جعلت كثيراً من عامة الناس يراجعون صورة الإسلام السياسي، من متخيّل الضحيّة النزيه إلى واقع المتكالب على المناصب السياسيّة والمكاسب الماديّة. فكان تحوّلهم في المتخيّل الجمعي من طور الوجود بالقوّة إلى طور الوجود بالفعل كمن خرّ من السماء لتهوي به العامة من المثاليّة إلى الصورة الماكيفيليّة؛ فهل الديمقراطيّة هي نتيجة طبيعيّة لتطوّرات تاريخيّة شهدتها الدول العربيّة أم هي استجابة لمصالح خارجيّة؟

### 5- الديمقراطيّة الوافدة:

إن المتتبّع للسياسة الخارجيّة للولايات المتحدة الأمريكيّة يلاحظ أنّها لعبت دوراً كبيرا في قيام الثورات العربيّة، ولكنه ظلّ دوراً خفيا لا تظهر فيه بشكل مباشر على سطح الأحداث؛ فقد بدأت بنفسها تحطيم أوّل حلقة من حلقات سلسلة الحاكم العربي القوي الذي لا يمكن لشعوبه أن تقهره، ولقد كان اختيار الزعيم العراقي بكلّ ما يحمله من رمزيّة حرب الخليج الأولى التي دفعت كثيرا من العرب والمسلمين إلى التعاطف معه خاصة بعد توجيهه ضربات مباشرة إلى الكيان الصهيوني، ولم يكن من الصدفة اختيار يوم عيد الأضحى لعرض مشهد "الضحيّة الذبائحيّة" من أجل تطهير الأنفس من رجس الزعيم الأوحد الذي لا يقهر، وإيقاظ العرب المسلمين على وقع الوهم الأسطوري الذي عاشوا فيه طويلاً خائفين من بطش الزعيم، وتلك الصدمة الأولى للوعي المفتون بكاريزما الزعماء جعلت المتخيّل العربي الإسلامي يعيش تحولا غيّر من تصوّراته للحاكم العربي

[28]- نعوم تشومسكي، **ماذا يريد العم سام**، (تعريب عادل المعلم)، ط1، مصر، دار الشروق، 1998، ص 55

وبيّن عجزه الخارجي إزاء ما يبديه من قوة خارجيّة، ومكنّت التحولات الكبرى التي شهدها العالم عن طريق ثورة الصورة والاتّصال من كسر كلّ أشكال احتكار الخبر والصورة، ذلك أنّ الحقب السابقة كانت ترسم صور الجنان في النشرات الرئيسة للأنباء، وتضع صورة مقدّسة للزعيم في أعلى الصفحات الأولى للجرائد، وكلّ التحاليل السياسيّة والآراء الصحفيّة تصبّ في وادي الإشادة بمآثر الزعيم العربي الخارق، ولكنّ وسائل الاتصال الحديثة استطاعت أن تخلق تعدّدا في الصورة بدل وحدتها وتحطيما لمنطق الرأي الواحد، فأفسدت صورة الجنان التي ترسمها النشرات الرئيسة عبر فضح الفساد المالي وانتهاكات حقوق الإنسان، تلك التهمة التي يكاد لا يخلو منها سجلّ رئاسي أو ملكي في العالم العربي والإسلامي، وبدأت الصورة تتهاوى وتتوارى وتفقد بريقها، وقد انتقلت من طور الاحتكار إلى طور تحرّرت فيه من كلّ القيود، وتنوّعت الحقائق الإخباريّة بعد أن كانت ثابتة، وقد لعبت البرامج السياسيّة للولايات المتّحدة الأمريكيّة دوراً حاسما في ترويج تكنولوجيا المعلومات وفرض حرّيّة الإبحار على الشبكة، وكانت توجّه انتقادات لاذعة إلى كلّ الدول التي كانت تفرض رقابة على الأنترنت، وكانت تشجّع على اختراق كل الحواجز الأمنيّة التي تضعها الأنظمة من خلال خطة متكاملة تشجّع على كسر كل الأطواق المعلوماتيّة "ففي ديسمبر 1990، أعلنت الوكالة الأمريكيّة للتنمية الدوليّة تدشين مبادرة الديمقراطيّة، وذكرت الوكالة أنّ الهدف من وراء تلك المبادرة هو تركيز خبرة ومهارات وموارد الوكالة تركيزا سافراً على المساعدة على تعزيز وترسيخ الديمقراطيّة."[29] وقال الرئيس "بوش" عند غزوه للعراق "في 26 شباط/فبراير 2003: نجتمع هنا اليوم في فترة حاسمة من تاريخ أمّتنا والعالم المتحضّر. لقد كتب الآخرون جزءا من هذا التاريخ وسوف نكتب بقيّته بأنفسنا. وقد وضع بوش في ذلك الخطاب أجندة استثنائيّة لم تتضمن دمقرطة العراق فحسب، بل أيضاً إجراء تحوّلات جذريّة في الكثير من سياسات الشرق الأوسط، بما في ذلك تحقيق تقدّم في النزاع الإسرائيلي الفلسطيني، وتعزيز التعّددية في بقيّة أرجاء العالم العربي".[30] وكان ذلك بعد انهيار الاتحاد السوفييتي مما يكشف أنّ الهدف من وراء هذه الخطوة هو محاولة فرض الهيمنة السياسيّة للمعسكر الليبرالي من أجل إيجاد دواء نهائي يحمي المناطق التي كانت موبوءة بالشيوعيّة من الارتداد إلى وضعها القديم وحماية باقي المناطق من خطر الإصابة المحتمل، وبذلك فمشروع الديمقراطيّة هو قضاء على إمكانات الردّة الشيوعيّة التي تهدّد المصالح الأمريكيّة بشكل مباشر.

ولكنّنا لا يمكن أن نتحدّث عن تحقيق الديمقراطيّة وحقوق الإنسان في الوطن العربي والإسلامي بعزل المفهوم عن سياق التطوّرات التاريخيّة وحاجات الشعوب العربيّة، فالحرّيّة معطى ضروري لبناء الحضارات،

[29]- مقال: أندرو ألبيرستون، سياسات الولايات المتّحدة الأمريكيّة تجاه الديمقراطيّة وحقوق الإنسان في العالم العربي، ضمن كتاب جماعي: آفاق الإصلاح السياسي في العالم العربي، ط1، مصر، مركز القاهرة لدراسات حقوق الإنسان، 2011، ص ص 117-119

[30]- فرانسيس فوكوياما، **بناء الدولة النظام العالمي ومشكلة الحكم والإدارة في القرن الحادي والعشرين**، (ترجمة مجاب الإمام)، ط1، السعودية، مكتبة العبيكان، 2007، ص 169

ولكنّ الواقع العربي والإسلامي يحتاج إلى إصلاحات هيكليّة ليس حلّها السحريّ في مجرّد صناديق للانتخاب ودساتير قد تبقى مجرّد حبر على ورق، ذلك أنّ حقب الاستعمار والتبعيّة الاقتصاديّة قد ولّدت مشاكل قد لا تستطيع الديمقراطيّة حلّها، "ويسبق بلوغ الديمقراطيّة إعداد طويل لم تعرف الأنظمة الأوليغاركيّة مثيلا لـه. ولا سبيل لانقلاب الأوليغاركيّة بين عشيّة وضحاها إلى ديمقراطيّة، مهما تغيّرت مؤسّساتها تغيّرا ثوريّا. ولكن يكفي حدوث انقلاب لتتحوّل الديمقراطيّة إلى أوليغاركيّة في لحظة الانقلاب. فالديمقراطيّة وليدة عمليّات تحوّل طويلة الأمد. وقد اجتازت جميع أشكال الديمقراطيّة التي عرفها العالم كلّ هذه العمليات قبل أن يتوصّل لوضع أدوات الحكم تحت رقابة جميع المواطنين. ولا تؤدّي الثورة إلى خلق الديمقراطيّة خلقا مفاجئا، ولكنّها تؤدّي إلى استبدال نظام أوليغاركي بآخر."[31] ولذلك، فمسار تحقيق الديمقراطيّة في الدول العربيّة التي عاشت انتفاضات شعبيّة أطاحت بحكّام مستبدّين لا تزال طويلة وشاقّة وتواجه صعابا داخليّة وخارجيّة، فهل يمكن الحديث عن الديمقراطيّة والحرّيّة في ظلّ التبعيّة؟ وهل ستكون الإرادة الشعبيّة أقوى من الهيمنة الأمريكيّة في توجيه سياسات الدول؟ وهل تصير القضايا المصيريّة التي أرّقت العرب المسلمين واحدة من أولويّات الأنظمة الديمقراطيّة؟

### 6- صدام الديمقراطيّة والإرهاب:

يقول "فرانسيس فوكوياما" (Francis Fukuyama): "يقوّض ضعف الحكم والإدارة مبدأ السيادة الوطنيّة الذي قام عليه النظام العالمي الجديد في الفترة التي أعقبت اتفاقيّة "وستفاليا". ويرجع السبب في ذلك إلى أنّ المشاكل الكثيرة التي تولّدها الدول الضعيفة لنفسها وللدول الأخرى تزيد بشكل كبير احتمال أن تسعى قوى أخرى في النظام الدولي إلى التدخّل في شؤونها ضد مشيئتها لحلّ تلك المشكلات بالقوّة."[32] ويبدو من ملامح الأوضاع السياسيّة المضطربة التي تعيشها دول الربيع العربي أنّ رياح الديمقراطيّة تجري بما لا يشتهي الشعب؛ فقد صار الإرهاب هاجسا يفوق كل الهواجس الأخرى، فاستبعد التفكير في القضايا الإقليميّة، بل طواها النسيان في المتخيّل الشعبي والخطاب السياسي للأنظمة القائمة؛ فقد اقتصر مجهودها على حفظ استقرارها الداخلي وحماية وحدتها الوطنيّة التي قد تحتاج جهود حفظها في بعض الدول إلى مساعدات خارجيّة، وتشير المؤشّرات الاقتصاديّة إلى تعثّر مسارات التنمية بدل تطوّرها بعد توقّف الاستثمارات والمشاريع وتعطّل السياحة في بعض الدول، وهي وإن كانت أوضاعاً عابرة، فإنّ آفاق تحوّلات اقتصاديّة عميقة وهيكليّة لا تلوح في الأفق في ظل تعويل الدول على الاقتراض والمساعدات الخارجيّة، وعجز الحكام

[31]- روبرت م. ماكيفر، **تكوين الدولة**، (ترجمة حسن صعب)، ط2، بيروت، دار العلم للملايين، 1984، ص 219

[32]- فرانسيس فوكوياما، مرجع سابق، ص 170

الجدد من "المتأسلمين" الفاقدين للخبرة السياسيّة عن تقديم تصوّرات ثوريّة في المجال الاقتصادي قد توجّه دول الربيع العربي نحو مرحلة جديدة تعبّر عن نسق ثوري في الاقتصاد، أمّا في المجال الاجتماعي، فإنّ سقوط الدكتاتوريّة قد كشف عن بنية نفسيّة ترى في الحاكم سرّ التزامها بالقانون، فقد كثرت حالات خرق القانون وتخلّت كثير من الطاقات العاملة عن روح الانضباط والعمل والضمير المهني في ظلّ تلازم العمل في ذهن كثير من العرب المسلمين من الفئات الشعبيّة بالرقابة والخوف من العقاب، وصارت المطالب الشعبيّة فوق طاقة الميزانيّات الضعيفة والمنهارة بسبب توقّف الجباية والاستثمار، وانعكس ذلك سلباً على السلم الاجتماعي وأسباب التعايش، فبرزت حاجة الشعوب العربيّة إلى تغيير هيكلي في تصوّراتها السائدة حول الدولة ومسؤوليّة المواطن في الحياة العامة؛ فهي في حاجة إلى ثورة فكريّة لمقاومة التواكل وعقليّة اللامبالاة التي تراكمت طوال حقبة الاستعمار والحكم الفردي. فهل يمكن بعد ذلك أن نلعن الديمقراطيّة كما فعل بعض الإغريق "ممّن رأوا في الحكم الشائن للدهماء خراب كل نظام مشروع."[33] وهل يحقّ لنا أن نتهكّم من الديمقراطيّة كما فعل كاتب الملهاة اليوناني أرسطوفانس؟ وهل يكون الشعب قد أساء اختيار "المتأسلمين" حكّاما في تونس ومصر، ولذلك فقد وقع إصلاح خطئه بثورة ثانية في مصر وبحكومة كفاءات وطنيّة على أنقاض حكومة فاقدة للكفاءة في تونس؟

### 7- الثورات الناعمة:

إنّ تسمية "الربيع العربي" لتسمية شائعة بدأت بذورها منذ ثورات الجمهوريّات السوفييتيّة المنفصلة عن روسيا، مثل تسمية ثورتي جورجيا وأوكرانيا بثورة الزهور والبرتقال، فلماذا تعتمد التسمية نفسها لوصف دول الربيع العربي و"ثورة الياسمين"؟

لقد نشأت هذه التسميات في إطار جدل خفي بين ثورات تقع داخل المنظومة الليبراليّة داعية إلى الحرّيّة والديمقراطيّة، وثورات بروليتاريّة روّج لها الفكر الشيوعي ضدّ الاستغلال الرأسمالي وهيمنة البورجوازيّة؛ "فقد أفرزت ثورة أكتوبر أعظم حركة ثوريّة منظمة في التاريخ الحديث. ولم يكن لتوسعها العالمي مثيل منذ الفتوحات الإسلاميّة في القرن الأوّل من تاريخها، فلم تكد تمضي ثلاثون أو أربعون سنة بعد وصول لينين إلى محطّة فنلندا في بروترغراد، حتى وجدت ثلث البشريّة يعيشون في ظلّ أنظمة تنبثق مباشرة من "الأيّام العشرة التي هزت العالم" والنمط التنظيمي اللينيني، وهو الحزب الشيوعي. وحدا معظمهم حدو الاتحاد السوفييتي في موجة ثانية من الثورات انبثقت من المرحلة الثانية من الحرب العالميّة الطويلة."[34] فالربيع العربي تسمية تقْذِفُ

[33]- تيومثي ميتشل، **الديمقراطيّة والدولة في العالم العربي**، (ترجمة بشير السباعي)، ط1، مصر، الهيأة المصرية العامة للكتاب، 2005، ص 7

[34]- إيريك هوبزباومّ، **عصر التطرفات**، (ترجمة فايز صباغ)، ط1، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، 2011، ص 119

بِالْحَقِّ الليبرالي عَلَى الْبَاطِلِ الشيوعي فَتَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ، ربيع ناعم ينسخ خريف غضب، وثورة شعبيّة تَبَدَّلَت حُسْنًا بَعْدَ سُوءٍ، فالخوف من أن يرتدّ الثائرون عَلَى أَدْبَارِهِم الشيوعيّة مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ هُدَى الديمقراطيّة وَيسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ، إذ يمكن أن تؤول تلك الانتفاضات إلى عنف ثوري يطالب بالعدالة الاجتماعيّة على حساب مصالح البورجوازيّة وضد الهيمنة الدوليّة، فلا بديل عن انفلات المسارات نحو المحرّمات الشيوعيّة التي وضعت نظريّات للعنف الثوري سوى الحديث عن ثورة "ناعمة" تستمدّ من القاموس السياسي للولايات المتحدة المفتون بكلّ ما هو ناعم، وبذلك فالتسمية رسم لآفاق الثورات وحدودها، إنّها ثورة لا تتّجه نحو تغيير هيكلي قد يحاكي الثورة البولشيفيّة، ولكنّه أنموذج "ليبرالي" يثور دون أن يمسّ بالبنية العميقة للتوجّه الرأسمالي التي تضمن امتداد الحرّيّة في نسختها الأمريكيّة وليست الثورة في نسختها السوفييتيّة القديمة، ولذلك فالتسمية احتواء للثورة داخل المنظومة الرأسماليّة، ولئن رأى علي حرب أنّ من فضل تلك الثورات أنّها لم تعتمد خيار العنف فسار في ركاب المشيدين بنعومتها[35]، فإنّ تلك النعومة تجعل "الثورات" إن صحت تسميتها تظلّ تحت الضبط غير قابلة للانفلات عن أهداف الإستراتيجيّة الأمريكيّة الداعمة للانتقال الديمقراطي في الوطن العربي، ولكن وفق المدى المسموح به؛ فالثورات الناعمة هي كالعنف الناعم، تستمدّ صفتها من قدرة الولايات المتّحدة والمعسكر الغربي على التحكم فيها، والنعومة إضفاء شرعيّة دوليّة على تلك التحوّلات السياسيّة، وهما يشتركان في كونهما آليتين ناجعتين للهيمنة يجعلان تلك الدول تابعة للأنموذج السياسي الأمريكي في بيت الطاعة الاقتصادي غير مؤهّلة، لتكون فريسة سهلة في يد القوى الاقتصاديّة الصاعدة كالصين أو القوى السياسيّة الحالمة باستعادة المجد السوفييتي في روسيا؛ فالولايات المتّحدة بكلّ إرثها الديمقراطي تظلّ الملهم الوحيد والمولّد الواحد للثورة ومفاهيمها ومقاصدها، فهي أشبه بلوحة فنّيّة لا يغيب عنها الجمال وسحر الصورة لتبهر جمهورها، ولكنّها لا تخرج عن حدود الأسيجة التي وضعها شرطي العالم الرقيب الدائم للمشهد الديمقراطي في الدول العربيّة.

ولعله يوجد ارتباط سيميائي بين التسمية والمسمى؛ فالياسمين في تونس هو ما يقدّم للسائح عند دخوله المطارات، ولونه الأبيض الناصع تعبير عن سلميّة تستبعد اللون الأحمر المشؤوم في الذاكرة الليبراليّة لارتباطه بالشيوعيّة، وهو من العادات التي تعبّر عن الاحتفال، ولذلك فهو يرتبط بوضعيّات محدّدة تعبّر عن حسن المظهر ورفعة الذوق، وهو رائج في موسم الصيف المرتبط بفصل الراحة والمتعة، فأمّا الثورة فأعمق

[35]- يقول علي حرب: "أنا وفي أوّل تعليق لي على الأحداث والمجريات، تحدّثت عن ثورات مدنية تقودها القوى الجديدة من الأجيال الشابة التي تشتغل بالقوّة الناعمة والفائقة للعصر الرقمي والواقع الافتراضي والزمني الآني، بل هذا ما ذهبت إليه، قبل ذلك في ضوء الإخفاقات في المشاريع والانتهاكات للحقوق والحريات، من جانب الذين رفعوا شعارات ثوريّة، قوميّة أو يساريّة أو إسلاميّة: الحاجة إلى ثورات جديدة ناعمة يفيد الفاعلون فيها من التحوّلات التي أتى بها عصر العولمة والصورة والشبكة." علي حرب، ثورات القوة الناعمة من المنظومة إلى الشبكة، ط2، بيروت، الدار العربية للكتاب ناشرون، 2012، ص 143

من أن تكون تحوّلاً سياسيّا يأتي نتيجة هروب رئيس، وأمّا الانتفاضات الشعبيّة فإنّها بحث عن تحقيق الشغل للعاطلين والكرامة للمواطنين، ولكنّ الهروب عن وصف الانتفاضة الشعبيّة بتسميات من معجم العمل والمال، إنّما يخفي خوفاً من إحياء الذاكرة البروليتاريّة في ثورتها ضدّ الاستغلال البورجوازي؛ فالمصطلح يحمل دلالة الديمقراطيّة السلميّة المنسجمة مع العقليّة السياحيّة، والتي تقدّ على مقاس السائح، ولا غرابة أن تنبثق التسمية من فرنسا، بينما الثورات الحقيقيّة تغيير جذري وشامل في المنظومة الاقتصاديّة المثقلة بالتبعيّة، وتحوّل جذري في البنية الاجتماعيّة، وثورة في المنظومة الثقافيّة. وذلك ما لا تستطيع تحقيقه الديمقراطيّة المعدّة على مقاس المشاريع الأمريكيّة.

### 8- الديمقراطيّة وبؤس المواطن العربي:

إنّ اتّباع منهج "بيير بورديو" (Pierre Bordieu) في الخروج من المجالس النخبويّة الضيّقة والإنصات إلى صوت الحقيقة الاجتماعيّة على ألسنة العاطلين والفقراء والمهمّشين[36] يفضي إلى القول، إنّ الديمقراطيّة صارت في وعي عامة الناس ترفا فكريا ولعبة سياسيّة لا طائل من ورائها في واقع استفحلت فيه البطالة والفقر وغابت عنه العدالة الاجتماعيّة؛ فالمطالب الشعبيّة همومها مادية والديمقراطيّة تنتج خطابات برّاقة على ألسنة السياسيّين لا تؤتي أكلها على أرض الواقع تنمية واستثماراً، حتّى صارت مصدر قلق وسبب عزوف عن العمل السياسي، فقد سئم التونسيّون مثلا مشاهدة الخلافات اليوميّة في المجلس التأسيسي وفي البرامج التلفزيونيّة، وصاروا يتوقون إلى خطاب سياسي ناجع يدفع عجلة التنمية، ويجلب الاستثمارات، ويوفّر مواطن الشغل، ويخفّف من موجة غلاء الأسعار التي اكتسحت الأسواق بعد الانتفاضات الشعبية. ولذلك، فالديمقراطيّة في تصوّر العاطلين والفقراء لا معنى لها إن لم تحقّق الشغل والطعام لكل فم.

لقد تأسّس الوعي العربي على عقليّة الراعي والرعيّة؛ فالراعي "ضروري لتجميع قطيع متفرّق، وحضوره حضور دائم ومستمرّ واجب، لأنّ مجرّد غيابه لحظة واحدة يجعل القطيع يتفرّق مرّة ثانية."[37] والديمقراطيّة تعني الخروج من إطار علاقة راع برعيّة إلى إطار شعب يعبّر عن مشاركته الفعليّة في الشأن السياسي من خلال مؤسّسات المجتمع المدني وحقّ الانتخاب، وبما أنّ التحولات التي شهدتها دول الربيع العربي بدت سريعة، فإنّها تظلّ عاجزة عن تغيير عقليّة راسخة في اللاوعي الجمعي للإنسان العربي، ذلك أنّ اعتبار الدولة راعية لحقوق الناس يجعل مجال المبادرات الفرديّة ضعيفاً، وتظلّ السنوات التي قضتها الشعوب

[36]- يصف فيصل دراج كتاب بؤس العالم "لبيير بورديو" بأنّه كتاب "يهرب من المعرفة العميقة ويكتفي بنثارها." بيير بورديو، بؤس العالم، (ترجمة محمد صبح)، ط1، سوريا، دار كنعان، 2010، ج1، ص 5

[37]- محمد الجويلي، **الزعيم السياسي في المخيال العربي بين المقدس والمدنس**، ط1، تونس، سراس للنشر، 1992، ص 79

خارج دائرة المشاركة السياسيّة سببا جوهريّا في إفقادها روح المبادرة والإقبال على المساهمة في شؤون المجتمع المدني، وهي مسألة تحتاج إلى سنوات طويلة من البناء المعرفي والجهود الفكريّة والبرامج السياسيّة ذات الروافد العلميّة من أجل تغيير تلك العقليّة وخلق مفهوم حقيقي للمواطنة بديلا عن القطيع.

كما عرفت الذات العربية باعتماد "الأساليب الأسطوريّة في مجابهة الواقع أو في الردّ على العجز والإحباط... على حساب العقل أو إلى جانبه أحيانا في مجابهة المشكلة بالمنطق والوقائع."[38]، ومع أنّ التقدّم العلمي قد أثّر في الوعي العربي إلاّ أنّ الفكر الأسطوري قد شهد تجلّيات جديدة تظهر في تصوّر "الانتفاضات الشعبيّة" تحمل حلولا سحريّة للثائرين، وفي إنجاح أحزاب سياسيّة رسمت للشعب تصوّرات أسطورية حول خرافة المواجهة وقداسة الانتماء، حتى أصبح انتخاب تلك الأحزاب في تصوّر بعض أتباعها مقدّسا، وأمسى انتخاب غيرها من الأحزاب العلمانيّة رجسا من عمل الشيطان وأمرا يخالف شرع الله، واستطاع "المتأسلمون" أن يجعلوا الإسلام في صورته الأسطوريّة فكرة مجرّدة يحاولون احتكارها ويوهمون الشعوب العربيّة بأنّهم حماتها، ولكنّهم حين انتقلوا من طور الخطاب السحريّ المحرّك للوجدان إلى الفعل السياسي الذي تحاكمه العقول أثبتوا عجزا عن ترجمة كثير من سحر حكاياتهم وقصصهم البطوليّة إلى مشاريع سياسيّة واقتصاديّة فباؤوا بغضب على غضب.

لا تزال الدول العربيّة باحثة عن زعيم كارزماتي مستبدّ وعادل، يملأ الدنيا خيرا ويبعد عن القطيع الأشرار، والديمقراطيّة ذات الشهرة العالمية، ثوب فاخر من الحرّيّة قد ينسجم مع ما حقّقته كثير من الشعوب الغربيّة من ثورات ثقافيّة واقتصاديّة ونجاح في سياساتها الاجتماعيّة، فرداء الديمقراطيّة على الجسد العربي الجريح يظل مجرّد ديكور سياسي أشبه بالياسمين المقدم للسائح عند وصوله إلى المطار، لا يستطيع إخفاء العورات العلميّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، فالواقع يحتاج إلى إصلاحات هيكليّة تبدأ من المجال الفكري وصولا إلى تطوير المنظومة الاقتصاديّة وتحقيق العدالة الاجتماعيّة، ولذلك فقد تكون الديمقراطيّة مجرّد باب يدفع المجتمعات إلى مزيد من الصراعات والانقسامات الداخلية، مثلما يمكن أن يصير آليّة لمراجعات عميقة للأنظمة المعرفيّة والاقتصاديّة والاجتماعيّة، والواقع وحده يكشف مسار "الانتفاضات الشعبيّة" وثمارها الآجلة، فعلى قدر أهل العزم تأتي العزائم، ولكن يبدو من خلال استقراء المعطيات الموضوعيّة أن الديمقراطيّة وحدها تظلّ الآن عاجزة عن تحقيق تلك التغيّرات الهيكليّة؛ فهي مجرّد حلقة داخل سلسلة من التحوّلات التي يمكن أن تحقّق الحرّيّة في معناها الشامل. ذلك أنّها تعني في أبسط معانيها "المقدرة على العمل دون الخضوع

[38]- علي زيعور، **التحليل النفسي للذات العربية، أنماطها السلوكية والأسطورية**، ط4، بيروت، دار الطليعة، 1987، ص 149

لأيّ ضغط خارجي أعني دون الوقوع تحت تأثير قوى أجنبيّة".[39] فهل تستطيع دول الربيع العربي أن تتحرّر بالديمقراطيّة من إكراهات الهيمنة الخارجيّة؟

## خاتمة:

تلك الانتفاضات العربيّة لا ريب فيها فاجأت المحلّلين السياسيّين، وحكمت على النخبة بأن يكونوا على هامش التحوّل الديمقراطي، بل لعلّهم عبّروا من موقعهم المتأخّر في السلم الثوري بما جادت به قرائحهم التي تأتي متأخّرة كبومة "مينارفا" ولا تستبق الواقع توقّعا، وأيقن بعضهم أنّهم واقعون تحت وهم النخبة التي تصورت نفسها قائدة للركب فإذا هي في آخر الركاب، وللتكفير عن ذنبها راحت تعظّم "الثورة" وتضخّم صورتها وتسمّيها الثورة المجيدة، وهي الواقفة منبهرة أمام ما لم تتوقّع حدوثه، وصار الحديث عن المجد الثوري خطابا أكبر من الواقع، فعاد المثقّف إلى برجه العاجي باحثا عن مصطلحات ومقاييس نظريّة لوصف الثورات العربيّة، ولكنّ الواقع بكلّ تناقضاته كشف أنّ النخبة لا تزال على وهمها القديم وأنّها حوّلت الثورة إلى مجال لاختبار قدرتها على تضخيم التحوّلات السياسيّة وجعلها ملحمة أسطوريّة، وظلّت في حاجة إلى روح نقديّة لا تكتفي بجلد التيّارات السلفيّة التي يمكن للواقع وحده أن يحبط مشاريعها، ويكشف زيف تصوّراتها، وإنّما برسم مسارات سياسيّة وتصوّرات اقتصاديّة قادرة على أن تحوّل الانتفاضات الشعبيّة إلى ثورة حقيقيّة فالمسؤوليّة ملقاة على عاتق المثقّف كي يكفّر عن ذنبه القديم ونرجسيّته المفرطة، لينزل إلى الشعب فيدرك حاجاته ويعبّر عن صوته ويفتّش في سجلاّته الفكريّة عن حلول عمليّة لمشاكله، ذلك أن الثورة الحقيقيّة تبدأ ثقافيّة علميّة لتفيض على المجالات الاقتصاديّة، وأعظم ما تطمح إليه الشعوب العربيّة هو إيجاد آليّات تجعل العلاقات مع الدول القويّة أكثر تكافؤًا في المعاملات الاقتصاديّة والمبادلات التجاريّة، وحتما لن تكون الحلول في اتّباع الخيارات الأصوليّة المؤمنة بانغلاق الهويّة ولا في الوقوف على عتبات الديمقراطيّة السياسيّة، وإنّما في احتذاء التجارب الآسيويّة وتحقيق الثورتين العلميّة والاقتصاديّة، لأنّهما مفتاح لحلّ كلّ المشاكل الاجتماعيّة.

[39]- فؤاد زكرياء، **مشكلة الحرّيّة**، ط2، مصر، مكتبة مصر، (د ت)، ص 17

MominounWithoutBorders

@ Mominoun_sm

Mominoun


الرباط – المملكة المغربية

ص.ب : 10569

هـاتـف: 00212537779954

فاكس: 00212537778827

info@mominoun.com

www.mominoun.com